مأزق المترقِّب

واضعًا يده علىٰ ذقنه يتفرج باهتمام بالغ علىٰ مشروعات العلم والدعوة والثقافة والحقوق تتسابق فعالياتها بين ناظريه .. هو يعرف أسماءها جيدًا .. وفي أيام مضت تواصل مع بعض رجالات الإنتاج في هذه المشروعات .. بل له الآن علاقات طيبة مع بعضهم .. وبحوزته أيضًا رقم الهاتف الخاص لبعضهم .. كما أن أحدهم دعاه يومًا لمجلس ضم بعض هؤلاء المنتجين .. بل هو لا يزال يتذكر أنه أرسل لبعضهم رسالة جوال أو بريد إلكتروني ورد عليه .. لكنه إلىٰ الآن ليس جزءًا من أي مشروع .. ولم يبدأ الخطوة الثانية في أي حلم سبق أن فتح له ملفًا في جهازه المحمول ..

هذه أزمة الإنسان المترقب .. الذي تململت من جلوسه مدرّجات المتفرجين .. وما زال متفرِّجًا ..

الإنسان المترقب قد يكون يهرول في ميعة العمر، ويحرق سنواته الذهبية بلا مبالاة .. ينفث الدقائق والساعات كما ينفث المدخّن صحته في الهواء غير مكترث ..

الإنسان المترقب حدث تحول مهم في حياته، كان يتابع الجدل والردود المتبادلة ونقائض التيارات عبر المنتديات الإلكترونية، ثم صار اليوم يتابعها عبر شبكات التواصل، هذا كل ما في الأمر ..

الإنسان المترقب قد يكون في المسجد يراجع حفظًا أو يذكر الله .. فتنسلّ يده لجواله وينقر أيقونة شبكات التواصل .. ويخرج من المسجد وهو فيه .. أتىٰ إلىٰ المسجد لتغتذي روحه العطشىٰ لذكر الله .. لكنه دخل المحراب بجسده ثم قذف بروحه في العراء خارج الأسوار ..

هل هذا يعني أن الإنسان المترقب هو كائن معزول الإحساس بالزمن؟ هل المترقب عديم الأحلام والطموحات؟ لا، بل هو يتحرّق كثيرًا ويتمنىٰ أن يصنع شيئًا لنفسه وللآخرين، ولكنه واقف كالمشلول .. لماذا؟ المترقب ذاته لا يدري ..

حين يكون المترقّب في مجلس ذكر عن قيام الليل تشتعل همته للمناجاة في هزيع السحر، وحين يكون المترقب يستمع لدرس عن فضل العلم ومناقب المعرفة يكاد يمضغ ذاته حماسةً ويتخيل نفسه قد حبس عليه غرفته بين أرفف مكتبته .. لكن ما إن يتجاوز لهيب الحماسة حتىٰ يتبدد كل شيء ويعود لذات برنامجه اليومي في التفرج علىٰ المنتجين ..

لدىٰ المترقب مشكلة يمكن تسميتها مشكلة «ترحيل المهام» فحين كان المترقب في المرحلة الثانوية كان يحدّث نفسه بأنه إذا

انتقل للجامعة وصار له استقلال وحرية أكبر فسيبدأ مشروعات علمية وعملية . . ولما بدأ الدراسة الجامعية صار يقول لنفسه: متىٰ ينتهي ضغط المذكرات والبحوث وتحضير المحاضرات والاختبارات وتبدأ مرحلة المهنة وأتفرغ لمشروعاتي العلمية والعملية؟! وهو يقولها صادقًا، ولما بدأت مرحلة المهنة أصبح يقول لنفسه: بعدما أنتهي من هم الزواج والمسكن والاستقرار المادي سأبدأ بإذن الله تنفيذ خططي وأحلامي العلمية والعملية، ثم انخرَط في مسؤوليات الأسرة والأبناء ومتطلبات المهنة، حتىٰ طوّح به العمر خارج الموسم الذهبي للإنتاج . . وصار يقول لنفسه: ذهب وقت التحصيل والبناء «وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر» . . وهكذا أحرق المترقّب عمره عبر آلية «ترحيل المهام» . .

يشتكي البعض ويقول أن شبكات التواصل أو تصفح الإنترنت جذّاب ويشغلني عن مشروعات علمية كثيرة، ربما يكون هذا الكلام يتضمن توصيفًا دقيقًا للمشكلة، ولكن لي رأي آخر، رأيي أن كثيرًا من الملهيات عن العلم والعمل ليست جذابة أصلًا، وإنما هي في حقيقتها وسيلة «هروب نفسي» عن المهام الواجبة . . ألا ترىٰ أنك أيام الاختبارات تدع المذكرات وتقرأ بعض الكتب التي كنت منشغلًا عنها خارج الاختبارات؟ ألا ترىٰ أنك إذا بدأت بكتاب في علم معين، صارت نفسك تحدثك بمطالعة كتاب في علم آخر لم تكن لتطالعه قبل ذلك؟

صحيح أن حالة التفرج والترقب هذه فيروس خطر يهدد حياة

كل واحد منا، لكن الشاب الذي يعيش المرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي في حقه أفظع وأكثر خطورة، فقد أصبح كالمزارع الذي نام علىٰ البذور حتىٰ فات الموسم .. فالمرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي مرحلة الذروة في قوة الملكات .. وأي غبن أن تبدأ المعركة بعد أن تخور قواك ..

ومن تأمل الليل والنهار الذي نعيش فيه، وكيف نتقلب في أيامه، ثم رأىٰ قسم الله سبحانه بهذا الزمن ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ امتلأ قلبه بإدراك شرف «الزمن» .. وأنه في كل ثانية ودقيقة وساعة ينفق من (رصيد زمني) منحه الله إياه وكتبه الملك حين كان جنينًا عمره أربعة أشهر .. لا شيء ساكن في حياتك .. أنت في كل لحظة تنفق من رصيدك الزمني .. فإما أن تشتري به علمًا وعملًا رابحًا .. أو يذهب في الترقب والتفرج في صفقة خاسرة ..

وأزمة الخسارة والغبن في استثمار هذا الرصيد الزمني هو الذي أشار له الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: **(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)**[1].

ويبدو أن هذه الأزمة، أعني أزمة الترقب والتفرج قريبة من (الحالة السبهللية) التي وصفها الفاروق عمر بن الخطاب في الأثر المروي عنه: **(إني أكره الرجل يمشي سبهللا، لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة)**[2].

---

(١) البخاري (٦٤١٢).

(٢) ذكره: أبو عبيد، **الأمثال**، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، نشرة جامعة الملك =

وجاء هذا المعنىٰ في كتب الأثر مسندًا عن ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: (**إني لأمقت الرجل أن أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة**)[1].

وهناك منظومة في الفقه مطوّلة مشهورة لابن عبد القوي رحمه الله، نظم فيها المقنع لابن قدامة كاملًا في زهاء اثني عشر ألف بيت، وقد جمع ابن عبد القوي فيها في بيت واحد حديث البخاري وأثر عمر المشهور، حيث قال رحمه الله:

ولا يذهبنّ العمر منك سبهللا

ولا تغبننّ النعمتين، بل اجهدِ[2]

ومن أكبر عوامل «الحالة السبهللية» ما يمكن تسميته مشكلة «التقطع والترحل» في أنصاف المشروعات .. وهذا أمرٌ قد نبّهت عليه المدونات المشهورة في أدب الطلب، ومن ذلك قول بدر الدين ابن جماعة (ت٧٣٣هـ): (**وكذلك يحذر من التنقّل من كتاب إلىٰ كتاب من غير موجب، فإنه علامة الضجر وعدم الإفلاح**)[3].

ولعلك تتذكر أن العلامة ابن عثيمين يمثل مشروعًا فقهيًا مكتملًا .. فبالله عليك لاحظ كيف يشرح فكرة نبعت من خبرته

= عبد العزيز، ص(٢٥٦)؛ ابن الأثير، **النهاية**، تحقيق رائد صبري، بيت الأفكار، ص(٤١١)؛ وانظر تعليق الزيلعي عليه في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٥٣).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٥٦٢).

(٢) ابن عبد القوي، **عقد الفرائد وكنز الفوائد**، نشرة محمد الجميح، ص(٢/ ٣٩٨).

(٣) ابن جماعة، **تذكرة السامع والمتكلم**، تحقيق السيد الندوي، دار رمادي، ص(١٧٣).

الطويلة حيث يقول في كتابه الذي جمعه من خطبه وسماه الضياء اللامع:

(وإن من الحكمة أن من ابتدأ بعمل وارتاح له فليستمر عليه، فمن بورك له في شيء فليلزمه، وبعض الناس يبدأ الأعمال ولا يتممها، فيمضي عليه الوقت سبهللا من غير فائدة، فمثلا يقرأ في هذا الكتاب أو في هذا الفن، ثم يدعه من غير أن يكمله، وينتقل إلىٰ غيره، ثم إلىٰ آخر، من غير تكميل الأول، فيضيع عمله وينقضي عمره بلا فائدة، وكذلك في الأعمال الأخرىٰ كل يوم له عمل، وكل يوم له رأي، فيضيع الوقت عليه من غير فائدة).

هذه حكمة عصرتها الخبرة يشرحها فقيه حدد هدفًا علميًا رفيعًا وبلغه فعلًا .. وليست نظرية يتاجر بها منتسب لعلم النجاح في قاعات الفنادق ..

ومن الظواهر المثيرة للغرابة فعلًا، أن أزمة المترقب لم تعد مقتصرة علىٰ إحراق الوقت في متابعة الجدليات والمناقضات عبر شبكات التواصل، بل أصبحت مثل هذه المماحكات التويترية مادةً للحديث في بعض مجالس الأخيار، رد فلان علىٰ فلان بتغريدة قوية، وتفكّه فلان علىٰ فلان بتغريدة مضحكة، وقصف فلان جبهة فلان، وهكذا، يا ضيعة الأعمار .. ويا سقىٰ الله أيامًا كان المجلس فيها نقاشًا عن ترجيحات ابن تيمية ومسلكيات ابن القيم ومنهج المتقدمين في الحديث ونوازل المعاملات وأخبار القوم من سير النبلاء ..

حدثت نتوءات في لاوعي المترقب، وبثور في ذوقه، وترهل في قدراته الذهنية؛ تزامنت مع متغيرات نظم الاتصالات الحديثة .. ففي بداية فتوّة المترقب كان يحضر بعض الدروس المتخصصة ويقرأ بعض الكتب الراقية في لغتها ومحتواها .. وبعد أن لبس المترقب نظارة شبكات التواصل، وأدمنها، كثرت تبعًا لذلك قراءته للتلفظات السوقية والمخاشنات الحوارية .. حتىٰ تدهور ذوقه وتخلخلت تلك الروح الجمالية التي كانت تلهمه في النظر لذاته ولمن حوله، واستسهل من النابيات ما كان يشمئز منه ..

وكثير من الناس يظن التأثر هو بمدىٰ القناعة بالمقروء من عدمه، وهذا غير دقيق، فنمط المادة المقروءة ونوعها إذا كثر يؤثر في القارئ دون أن يشعر حتىٰ لو لم يكن مقتنعًا بها، لأن غذاء العقل النافع يزاحمه الغذاء الفاسد، ولذلك قال أبو العباس ابن تيمية:

(ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعام حاجته استغنىٰ عن طعام آخر، حتىٰ لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشُّم، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمته إلىٰ المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، ومن أدمن علىٰ أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقىٰ لحكمة الإسلام

وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم لا يبقىٰ لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير)[1].

وكما كانوا يقولون للمسافر للخارج: «احذر المرأة الأولىٰ والكأس الأول»، فما أقرب أن يقال للمنخرط في شبكات التواصل: «احذر الشتيمة الأولىٰ»، ولقد رأيت إخوانًا لي كانوا من أبعد الناس وأكثرهم نفورًا عن الردود الفجة والكلمات النابية، ثم مع كثرة تعرضهم لمناقشين غير راقين، تساهلوا مرة في رد خشن، ثم تبعها أمثالها، وذهب الحاجز بينهم وبين هذه الأساليب، وصرت إذا ناقشته في أسلوبه الجديد قال لي: «هناك أناس لا يفهمون إلا هذه اللغة». فانظر كيف وقع في سلوك جديد شرعنه لنفسه لم يكن ليقع فيه مسبقًا بسبب كثرة جلوسه في طرقات شبكات التواصل وتعرضه المستمر لتدفق ردود بمستوىٰ هابط . .

وهكذا القدرات الذهنية فهي ليست شيئًا مختلفًا كليًا عن القدرات البدنية، بل كثير من القوانين التي تجري علىٰ القدرات البدنية تجري ذاتها علىٰ القدرات الذهنية، ومنها قانون (اللياقة)، فعضلات الجسم تترهل وتضمر إذا لم يمارس الإنسان التمارين البدنية، وهكذا القدرات الذهنية تضمر وتضعف إذا لم يمارس العقل المران الذهني العميق، ولذلك كان لفظ الرياضة في التراث

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، ص(١/ ٤٨٣).

الإسلامي يشمل ثلاثة مستويات: البدن والذهن والنفس، كما يقول ابن تيمية: (**لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع: «رياضة الأبدان» بالحركة والمشي، و«رياضة النفوس» بالأخلاق الحسنة، و«رياضة الأذهان» بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة**)[١].

وكانت رياضة الذهن وتمرينه وبناء القدرات العقلية مسألة حاضرة لدىٰ المتقدمين من السلف كما قال ابن تيمية: (**كان كثير من علماء السنة يرغب في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة وعويص الفرائض والوصايا والدور: لشحذ الذهن**)[٢].

والمراد أنه إذا طال فراق المترقّب للكتب والبحوث الدقيقة وتوليد المفاهيم وتمحيص الاستدلالات وحل الإيرادات، وصار زاده المعرفي تغريدات أفقية، وطالت هذه الحال، ضمرت قدراته الذهنية، بل يتطور الأمر إلىٰ حالة أخطر، وهو كونه ينفر من المسائل العلمية الدقيقة وينفد وقود احتماله وطاقة التركيز لديه، ويصبح عقله يعمل بنظام الوجبات السريعة ..

أخي المترقّب .. أنا ناصح لك، وأحب الخير لك، صدقني أنت تحتاج التوقف سريعًا وتغيير نمط حياتك، وأسأل الله أن نرىٰ منتجاتك العلمية والعملية قريبًا، والله يسددك.

---

(١) ابن تيمية، الرد علىٰ المنطقيين، تحقيق عبد الصمد الكتبي، مؤسسة الريان، ص(٢٩٩).

(٢) المصدر السابق، ذات الصفحة.

إلباس العجز جبّة الحكمة

من أعظم المواضع التي حارت فيها عقول كثير من المنتسبين للعلم والدعوة والحسبة والجهاد، ووقع فيها الاضطراب، باب **(العلاقة بين شعب الإيمان)** . .

حيث خلق الله النفوس متفاوتة في الاستعدادات والملكات والقدرات والقوىٰ والفروق الفردية، ثم أنزل الله وحيًا فتح فيه أبوابًا إلىٰ الخيرات، حتىٰ جعل الله للجنة أبوابًا، ورسم كل باب منها بشعبة من شعب الإيمان، كما خرّج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **(فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة)**[1].

وتنافس أهل الإسلام في تعديد شعب الإيمان، فصنفوا فيه وأوعبوا، حتىٰ بلغ كتاب البيهقي في شعب الإيمان بضعة عشر

(١) صحيح البخاري (١٨٩٧).

مجلدًا، والبيهقي تشكَّل وعيه العلمي في عصر الموسوعات الكبرىٰ، وهذا كان مزاج العصر في التأليف، المبني علىٰ الاستيعاب والاستقصاء والشمول ..

وبسبب هذا التفاوت بين غزارة شعب الإيمان، ومحدودية القدرات البشرية وقصر العمر، ينشأ في النفوس التجاذب والتوتر .. فتجد كثيرًا من الناس في لحظات الفتوة العلمية واليفاعة الدعوية: «فلكيّ الطموحات» .. يتحامل علىٰ نفسه أن يصافح النجوم وهو في أسفل الوادي .. كلما سمع اسم عِلْم هفت نفسه إليه .. وكلما نبا إليه خبر ثغر دعوي تخيل نفسه يطير إلّيه .. ثم لا تلبث ارتطامات الواقع وكدمات تعثر المشروعات أن تحفر أخاديد الإحباط في أحلامه .. ويرىٰ بنفسه ملف الآمال تتساقط أوراقه ورقة ورقة أمام عينيه. وتتنوع استجابات الناس لهذا السيناريو المتكرر في حياة الكثيرين، ولكن من أسوأ الاستجابات الشائعة استجابة يمكن تسميتها: **(إلباس العجز جبّة الحكمة)** ..

ودعنا نستعرض بعض نماذج هذه الاستجابة:

فمن ذلك أن من أعظم شعب العلم **(حفظ العلم في الصدور)** كما قال ربنا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ولو لم يكن في فضل حفظ العلم إلا بركة دعاء سيدي رسول الله ﷺ لكفىٰ: **(نضّر الله امرًا سمع منا حديثًا فحفظه حتىٰ يبلغه)**[1] ..

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٦٠)، سنن الترمذي (٢٦٥٦).

بل تمعن في استفسار رسول الله ﷺ -كما في الصحيحين- حين قال لأحد شباب الصحابة: **(ماذا معك من القرآن؟)** فقال الشاب: **(معي سورة كذا، وسورة كذا، وسورة كذا ..)** وأخذ يعدّد سورًا، ثم أعاد النبي ﷺ السؤال بتدقيق أكثر يكشف منزلة الحفظ في نفس رسول الله ﷺ حيث قال له النبي ﷺ: **(أتقرؤهن عن ظهر قلبك؟)**، فقال الشاب: نعم، فقال النبي ﷺ: **(انطلق فقد زوجتكها فعلمها من القرآن)**[1]، فمفهوم (القراءة عن ظهر قلب) الذي يؤكد عليه رسول الله ﷺ هاهنا يسكب اليقين في النفس حول شرف حفظ العلم ..

وكل طلاب العلم بلا استثناء يبدؤون حياتهم العلمية بمشروعات الحفظ، ولكن إمكانيات الحفظ والضبط تتفاوت، فقد رأينا أشخاصًا يحفظون في نصف ساعة ما يستذكرونه بعد شهرين، ورأينا أشخاصًا يحفظون بعد العصر ما يضطربون في تلاوته قبيل العشاء!

فبعضهم إذا لم يستطع حفظ العلم لا يعترف لنفسه بالعجز ولا يجتهد في تحفيز إخوانه ممن يستطيع ذلك، بل تراه يخذّل إخوانه عن حفظ العلم، ويبتكر ألوان الملامز في المشتغلين بحفظ العلم، برغم أنه هو ذاته، هو ذاته لا غيره، يضمر في نفسه رهبة أمام حفاظ العلم، وذهولًا منهم إذا بدؤوا في سرد محفوظاتهم، وكم

(١) صحيح البخاري (٥٠٣٠)، صحيح مسلم (١٤٢٥)، ولم أجد التصريح باسم المبهم، وصُرِّح بكونه شاب في مسند ابن أبي شيبة (١٠٢).

رأينا من أشخاص يذمون حفظ العلم أمام أقرانهم، ثم إذا أرادوا الثناء علىٰ من يوافق هواهم قالوا: هو «يحفظ كذا وكذا»، فيذمون حفظ العلم في باب التنظير، وينسون تنظيرهم في ساحة النزال والمباهاة . .

بل ويخترع بعضهم متضادات ليست أضدادًا أصلًا، كتضديدهم بين الحفظ والفهم، وهل رأيت أحدًا أصلًا يقول: (أوصيك أن تحفظ ولا تفهم!)، بل كل من يقول احفظ يقول لك: افهم، ولكن المصيبة في من يقول: (افهم ولا تحفظ!) وأي شيء يضيرك أن تكون صادقًا مع نفسك، وناصحًا لفتيان يستمعون إليك، فتقول لهم: يا إخواني استثمروا أعماركم قدر استطاعتكم بالفهم والحفظ، كليهما.

ومن أسباب سوء الفهم في مسألة (**حفظ العلم**) أن كثيرًا من الناس إذا ذكر لهم حفظ العلم انصرفت أذهانهم إلىٰ (**حفظ المتون**) المقررة المعروفة، والواقع أن **حفظ المتون** هو «جزء» جليل من حفظ العلم، ولكنه ليس هو حفظ العلم بـ«المطابقة»، فحفظ العلم أوسع من ذلك كثيرًا، حيث يدخل في حفظ العلم: حفظ ألفاظ القرآن والحديث، وأسماء الأعلام ووفياتهم، ومعاني اللغة والتعريفات، وأشهر الأقوال في المسألة، والتسلسل التاريخي للمذاهب والبدع، ومواطن المسائل ومظانها، وحفظ الموضوعات التي تعرض لها كل كتاب مهم في بابه . . إلخ.

بما يعني أن كل عناصر العلم هي من أبواب حفظ العلم،

وكلما حفظ طالب العلم قدرًا أكبر من المعلومات زادت إمكانياته. وقد كان السلف في القرون المفضلة قبل نشوء المتون المقررة المعروفة منهمكين في حفظ العلم ويحفظون ألفاظ النصوص وآثار الصحابة والأسانيد وأحوال الرواة ولغة العرب وشواهدها ونحوها من المعلومات. والمراد أن حفظ العلم أوسع من حفظ المتون، وأن حفظ المتون جزء جليل من حفظ العلم.

ومن أسباب سوء الفهم -أيضًا- في مسألة (حفظ العلم) ظنُّ الكثيرين أن حفظ العلم بتكرار لفظه، بتعيين مقطع وتكراره، وهذا صحيح جزئيًا، فتكرار اللفظ المعين طريق عملي فعّال لحفظ العلم، لكنه ليس هو الطريق الوحيد، بل الصحيح أن كل وسائل «**معاناة العلم**» بإدمان النظر فيه وتقليبه، وتأمله وتدبره: بالشرح والتلخيص والتعليم والتحقيق والتحرير والمدارسة والمباحثة والفتيا .. الخ. كلها من وسائل حفظ العلم ورسوخه في الذهن.

ومعاناة العلم تثمر **الخبرة** به، ولذلك ترىٰ الإمام ابن تيمية يستعمل مصطلح **الخبرة** في تقييم العلم كثيرًا، كقوله من **له خبرة بالسنة** علم كذا، أو من **له خبرة بنصوص أحمد**، أو فلان لم يكن **له خبرة بمذهب أهل السنة**، وهكذا، **فالخبرة** فيها قدر زائد علىٰ مجرد العلم المحض، وهي الناتجة عن معاناة العلم وتقليبه وإدمان النظر فيه وتفحصه وتمعنه ..

وهذه القضايا، حول مفهوم حفظ العلم ووسائل حفظ العلم؛ ليس هذا موضع بسطها، ولها إن شاء الله موضع آخر، وإنما المراد

التنبيه عرضًا علىٰ وهم يرد للبعض.

ومن شعب العلم (**التبحر**) وسعة الاطلاع وجرد المطولات وثراء المقروءات، وجندلة الكتب واحدًا تلو الآخر، وسعة الاطلاع تفتح باب التشعب في العلم، ولذلك قال ابن عبد الهادي عن شيخه البحر ابن تيمية: (**لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروىٰ من المطالعة، وقلّ أن يدخل في علم من العلوم، في باب من أبوابه؛ إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب**)[1]

وقال ابن كثير عن صاحبه ابن القيم: (**وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه . . ، واقتنىٰ من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْره، من كتب السلف والخلف**)[2].

ووفرة المصادر تتيح لمن يروم الكتابة والتأليف النقول التي يحتاجها، ويظهر أثر ذلك في كتابه، كما قال ابن حجر عن الأذرعي: (**وجمع الكتب حتىٰ اجتمع عنده منها ما لم يحصل عند غيره، وظفر من النقول ما لم يحصل لأهل عصره، وذلك بيّن في تصانيفه**)[3].

وتحقيق وتحرير المسائل هو مخ العلم، ولقد حفر إزميل

---

(١) ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وزميله، مؤسسة الرسالة، ص(٤/ ٢٨٢).

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ص(٩/ ٤٩١).

(٣) ابن حجر، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق د. حسن حبشي، نشرة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص(١/ ٢٤١).

التجارب في ذهني أن **(مقارنة المصادر هي مفتاح التحقيق)**.

ومن أعظم ثمرات مقارنة المصادر أنها تفرز لك (المعلومة) عن (القراءة والتفسير)، فكم من مُعطَىً قرأته في كتاب تظنه معلومة مسلَّمة يُبنىٰ عليها، فلما قارنت المصادر تبيّن أنها رأي وتوجيه واستنتاج من المؤلف.

وتجد بعض شداة العلم في مبتدأ الطريق يولعون بشراء الكتب، وذهنه يعيش قصة مشروع علمي مع كل كتاب يمد يده إليه ليقتنيه، فيتخيل نفسه كيف سيقرؤه؟ وماذا يستخرج منه؟ وماذا سيضيف إليه؟ ثم لا يلبث بعد زمن أن يرىٰ كتبه التي اشتراها من معرض الكتاب السابق لم يمسها إلىٰ الآن بينما هو يدفع عربته في معرض الكتاب الحالي! فتضطرم في صدره أحاسيس اللاجدوىٰ ومخاوف خداع الذات، فتجد بعضهم لا يعترف لنفسه بالعجز عن الجدية في القراءة وسعة الاطلاع، وعدم قدرته علىٰ الاستفادة من الكتب الكثيرة، بل ينقلب ويخلع علىٰ عجزه عباءة الحكمة، ويتحول ذامًا ومحذرًا من اقتناء الكتب ومطاردة المصادر، دون تمييز بين من يقتني الكتب وينتفع بها، وبين من يقتني الكتب ويكدسها.

وهذا التوازن بين الحث علىٰ اقتناء الكتب، وبين التحذير من الاقتناء للمكاثرة فقط، تعددت التنبيهات إليه في كتب أدب الطلب، ومن ذلك قول بدر الدين بن جماعة (ت٧٣٣هـ): **(ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه، لأنها آلة**

التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وكثرتها حظه من العلم، وجمعها نصيبه من الفهم، كما يفعله كثير من المتحلين للفقه والحديث)[1].

فوازن ابن جماعة هاهنا بين الحث علىٰ اقتناء الكتب، والاحتراس من اقتناء المكاثرة، وهذا يتعارض مع من يزهّد في كثرة اقتناء الكتب مطلقًا، ومن يمدح كثرة اقتناء الكتب مطلقًا.

وهاتان الشعبتان من شعب العلم، أعني شعبة (حفظ العلم) وشعبة (سعة الاطلاع)، كثر افتعال الصدام بينهما، وهو نظير الصدام المفتعل بين شعبة (حفظ العلم) وشعبة (فهم العلم)، وكل هذه الشعب تقع من العلم موقع الأبواب من القصر، فاجتهد في تكثير أبوابك، وما علىٰ أحدٍ يُدعىٰ من جميع هذه الأبواب من ضرورة.

ولا أذيع سرًا إن قلت للقارئ أنني كلما رأيت انفجار المعارف في عصرنا، وتنوع أساليب العرض والمعالجة، ثم رأيت طالب علم يزهّد في سعة الاطلاع؛ إلا انقبض قلبي، وخشيت أن ينشأ جيل إسلامي ينكسر معرفيًا أمام التيارات المنحرفة، ثم تدور في خاطري الهموم كيف أوصّل لهذا رسالة بأن تصرفه خاطئ وخطر علىٰ مستقبل العلم والدعوة.

ومن أعظم شعب العلم، شعبة (فقه مسائل التراث) وشعبة (فقه النوازل) فتجد بعض من حاول أن يفقه المستجدات المالية

---

(١) ابن جماعة، **تذكرة السامع والمتكلم**، تحقيق السيد الندوي، دار رمادي، ص(٢٢٥).

والطبية والسياسة الشرعية أعياه تتبع مصادرها الحديثة، فعاد منتقصًا لها بدل أن يعترف بعجزه ويحرض إخوانه علىٰ القيام بالواجب الكفائي، وتجد آخرين حاوِلوا فقه المسائل التراثية الأصيلة فأعيتهم لغة تلك الكتب وانقطعت أعناقهم عن مطولاتها، وتنوع العلوم الآلية المطلوبة لها؛ فأنِفوا من الاعتراف بالعجز، وصاروا يظهرون التهكم بمن يحرث الماضي ويعيد إنتاج المستهلكات. والواقع أن كلا المطلبين شعبتان عظيمتان من شعب العلم، فمن جمعهما فقد تسيّد المشهد الفقهي، ومن عجز عن أحدهما فليجتهد فيما تدركه قواه وملكاته، وليشارك إخوانه في الجبهة الأخرىٰ بالنية الصالحة علىٰ الأقل، فيدعو لهم ويحبهم، والمرء مع من أحب، وليس من اللائق إذا عجزت عن أحدهما أن تتقمص صورة الحاذق الواعي في تركك لأحد البابين.

ومن أعظم **وسائل الدعوة** اليوم التسلح بقدر أساس من **الثقافة المعاصرة**، فإن العلم الشرعي غذاء، والثقافة المعاصرة وعاء، والوعاء الجميل يفتح شهية المتلقي للغذاء النافع، وأكثر العلماء بعد السلف تأثيرًا في قضايا المنهج هم العلماء المثقفون، كابن حزم والغزالي وابن تيمية، بل إن المثقفين الإسلاميين كالمودودي وسيد قطب والندوي ونحوهم كانوا أكثر تأثيرًا من بعض فحول العلماء في عصرنا، برغم ما يعتري خطاب هؤلاء المثقفين الإسلاميين من بعض القصور الناشئ عن قلة الخبرة بعلوم الشريعة، فكيف لو جمع بينهما في نموذج (العالم المثقف)؟!

والمراد أن هذه الأمة لها خصوصية، فهي (أمة وحي) فمن لم يعرف كلام الله ورسوله، ومعاني كلامهما، والعلوم الموصلة لذلك؛ لم يستطع التأثير الصحيح في هذه الأمة، ومن لم يعرف الثقافة المعاصرة لم يعرف كيف تشكل عقل الجيل الجديد؟ وكيف تفكر النخب المعاصرة المأزومة مع الإسلام؟ فالثقافة المعاصرة «لغة» ومن لم يعرف لغة قوم كيف يدعوهم؟ ولذلك قال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فتدبر كيف ربط البيان باللسان، ينفتح لك باب إدراك أثر معرفة اللسان الثقافي المعاصر في البيان الشرعي.

وكنت حين أقرأ في كتب التراجم يلفت انتباهي حين يقولون عن عالم من علماء السنة أنه اطلع علىٰ العلوم العقلية في عصره، بل إنني كنت زمنًا طويلًا أتوهم أن ابن تيمية إنما قرأ الثقافة المعاصرة بعدما كبر وصار في أواسط العمر، واكتشفت أنه أنجز العلوم الشرعية، ثم اطلع علىٰ الثقافة المعاصرة، بل وصل إلىٰ مستوىٰ نقدها، ليس نقدًا جزئيًا في بعض المسائل، بل نقدًا كليًا شاملًا، كل ذلك وهو صغير، حيث يقول عن نفسه:

(المعلوم من حيث الجملة أن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بني آدم حشوا وقولًا للباطل وتكذيبًا للحق في مسائلهم ودلائلهم، وأذكر أني قلت مرة لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم، وأنا إذ ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام؛ كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل، إما في الدلائل وإما في المسائل، إما أن يقولوا مسألة

تكون حقا لكن يقيمون عليها أدلة ضعيفة، وإما أن تكون المسألة باطلًا، فأخذ ذلك المشغوف بهم يعظم هذا وذكر «مسألة التوحيد»، فقلت: التوحيد حق، لكن اذكر ما شئت من أدلتهم التي تعرفها حتىٰ أذكر لك ما فيه ..)[1].

هذا الحوار الذي يسجله ابن تيمية من واقع سيرته الذاتية، حيث يروي كيف نقد الثقافة الفلسفية في عصره باستيعاب شامل ودقيق؛ وهو **قريب العهد من الاحتلام**، بلغ بي من الانبهار مبلغه، وتوقفت عن القراءة حين بلغت هذا الموضع، ووضعت يدي في الكتاب، وصرت أبحث عن من أطلعه عليه، وأتحرىٰ الدهشة في وجهه كالمستزيد ..

والمراد هاهنا أن **الجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة عملة نادرة**، وأهل هذا الجمع هم المؤهلون للتأثير العميق في هذا العصر بعد توفيق الله، وهم المؤهلون لتحقيق مراد الله بتحكيم الشريعة في مسائل المعرفة والعلوم المعاصرة، وتحرير مسائل العلوم الحديثة في ضوء الوحي، ويجب أن نعترف أنها مهمة شاقة وتحتاج لملكات خاصة، من أهمها «سرعة الإدراك»، وهي ملكة أخص من مطلق الفهم، وتأمل سرعة الإدراك فيما يرويه ابن عبد الهادي عن شيخه ابن تيمية: **(وقرأ أيامًا في العربية علىٰ**

---

(١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٤/ ٢٧).

ابن عبد القوي، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتىٰ فهمه)[1].

والحقيقة أنك تجد بعض المشتغلين بالعلم الشرعي لاحظ أنه لا يمكنه الجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة، فصار يزهّد غيره من أهل العلم في ذلك، وهذا اجتهاد غير موفق، بل يجب أن يوجه العالم طلابه إلىٰ أن يؤصّلوا أنفسهم في العلوم الشرعية، ثم يكونوا أنفسهم تكوينًا ثقافيًا ممتازًا بحسب الطاقة والإمكان، ولا يلبس عجزه جبّة الحكمة.

ومن ذلك أنك تجد من شعب الإيمان **(الصدع بالحق)** وتحمل ما يترتب عليه تبعًا من الابتلاء، بل إن حمل رسالة الإسلام ذاتها لا تسلم من تهديدات القوىٰ الدنيوية أصلًا، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وجاء في القرآن التنبيه علىٰ مقام (الصبر) بعد مقام (النهي عن المنكر) كما قال الله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧]، فيصدع الناهي عن المنكر -مثلًا- في المنكرات الأخلاقية أو المظالم الحقوقية والمالية ونحوها، ثم قد يرىٰ الفقيه والداعية عجزه عن ذلك، فلا يصارح بعضهم نفسه بعجزه، ويدعو لمن قام بالفرض الكفائي ورفع المعرّة عنه؛ بل يحاول أن يلبس عجزه جبّة الحكمة ومشلح بُعد النظر، ويلمّح للصادعين بمهامز التهور والتعجل وقلة العلم والوعي والعاطفة

---

(١) ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وزميله، مؤسسة الرسالة، ص(٤/ ٢٨٢).

والحماس ونحو هذا المعجم البارد.

وكم شاهدنا من عجز عن الإنكار والاحتساب، وفي ذات الوقت ثقُل عليه أن يعترف بالعجز والقصور، فاستعاض عن ذلك باستسذاج المحتسبين.

ومن أعظم شعب الإيمان نصرة المجاهدين في سبيل الله، الملتزمين بالضوابط الشرعية للجهاد، المجافين للغلو، والمتسامين بأخلاقيات المجاهد في سبيل الله، أولئك الذين ألقوا أرواحهم تحت أزيز الغطرسة الاستعمارية وذيولها، نُصْرَتُهم بالكلمة والريال وقنوت النازلة وأكف الضراعة إذا هبطت الأسحار، وتدبر قول ربنا: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ثم إنك تجد بعض من حاول نصرة هؤلاء المظلومين شعر بإحراجات داخلية فتداهمه الخيالات المرتعشة حتىٰ يقوده الذعر ليس إلىٰ الاعتراف بعجزه، أو علىٰ الأقل يقول لنفسه أن لديه مصالح دعوية راجحة تمنعه من نصرة المظلوم، ونحو هذا، بل تراه يستسمن عمامة الحكمة بأكوارها وذؤابتها ويتزيا بها، وتندّ من لسانه العبارات الموحشة يطعن بها في ظهور أقوام اشترىٰ الله سبحانه نفوسهم، أيقوىٰ هذا علىٰ أن يأتي يوم القيامة وخصومه تثعب جراحهم، اللون لون الدم والريح ريح المسك؟

وقد كان يسع هذا وأمثاله أن يجتهد فيما يمكنه، ويشارك إخوانه الباذلين أرواحهم بالنية الصالحة والدعاء والحب، فالمرء مع من أحب، وقد كان في غنىٰ عن أن يغطّي عجزه بأسمال الحكمة المثلجة.